

دولوريس إيباروري

1989 - 1895

لاباسيوناريا هو الإسم الذي طغى على الإسم الأصلي للزعيمة الشيوعية الأسبانية دولوريس إيباروري. برز اسمها عشية الحرب الأهلية الأسبانية عندما انتخبت في عام 1935 في المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية (الكومنترن) عضواً في هيئة الرئاسة للمنظمة الأممية. أسهمت بنشاط في عام 1936 مع الأمين العام للحزب الشيوعي الأسباني خوسيه دياز في العمل لتأسيس الجبهة الشعبية الأسبانية التي تشكلت من ائتلاف أحزاب اليسار الشيوعي والإشتراكي الديمقراطي والفوضوي. وصارت في الحرب الأهلية أحد أبطال النضال الصعب للدفاع عن الجمهورية، من موقعها في قيادة حزبها وفي قيادة الجبهة الشعبية. وكانت خطبها الرنانة تلهب الجماهير. واتخذت لنضالها شعار الذي أطلقتته خلال الحرب الأهلية: الأفضل بالنسبة إلينا أن نموت واقفين من أن نحيا راكعين. عندما سقطت الجمهورية في أيدي الفاشست بقيادة الجنرال فرنكو وبمساعدة إيطاليا الفاشسية وألمانيا النازية انتقلت إيباروري إلى موسكو، وعاشت القسم الأساسي من حياتها هناك. ولم تعد إلى أسبانيا إلا بعد وفاة فرنكو. وكانت قد تقدمت في العمر. غادرت الحياة في عام 1989 بعد أن كحلت عينيها برؤية وطنها أسبانيا. عادت وهي في الرابعة والتسعين من عمرها يغمرها الأمل في أن ترى الحزب الشيوعي الأسباني يستعيد عافيته بعد أن كادت تنهكه الإنقسامات والأزمات والصعوبات. عادت لترى شعبها يبني تاريخه الجديد استكمالاً لما كانت قد وعدت به الجمهورية من إنجازات، وما كانت قد باشرت في تحقيقه عبر العديد من القرارات التاريخية التي اتخذتها لصالح الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب الأسباني.

ولدت دولوريس في عام 1895 في مدينة كالارتابا في مقاطعة الباسك. كانت الوليد الثامن لوالديها. كان والدها عاملاً في أحد المناجم. وكان كاثولوكياً ملتزماً. تابعت دولوريس دراستها إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمرها. وكانت ترغب في أن تصبح مدرسة. لكنها لم تحقق حلمها نظراً لفقر والديها ولعدم قدرتهما على تأمين مستلزمات دراستها لمدة طويلة، أي للمدة التي تصبح فيها مؤهلة للقيام بمهنة التدريس. وبدلاً من متابعة دراستها ذهبت للعمل في محترف للخياطة. ثم انتقلت للعمل في خدمة المنازل. وظلت تمارس ذلك العمل إلى أن تزوجت في عام 1916. وكانت قد بلغت الحادية والعشرين من عمرها. تزوجت من أحد عمال المناجم. وكان إشتراكياً. وانضمت بعد زواجها منه إلى الحزب الإشتراكي العمالي الأسباني. أنجبت منه ستة أولاد، مات منهم أربعة في ريعان الشباب. وكانت أوضاع العائلة بائسة. وزادها بؤساً كون الزوج قد دخل السجن عدة مرات ابتداءً من عام 1917 حتى عام 1920. لم تمنعها حالة الفقر التي عاشت فيها من البحث عن المعرفة وإغناء ثقافتها الإشتراكية.

فقرأت كتابات ماركس وكتابات كلاسيكي الماركسية. وانتسبت إلى منظمة الشيبيبة الإشتراكية. وسرعان ما بدأت تنشر مقالات في الصحافة العمالية. واتخذت لها في عام 1918 لأول مرة الإسم الذي ظلت تعرف به "لا باسيوناريا"، والذي كانت توقع به مقالاتها. انسحبت من الحزب الإشتراكي مع منظمة الشيبيبة الإشتراكية والتحققت بالأممية الشيوعية التي أسسها لينين في أعقاب انتصار ثورة أكتوبر. شاركت في ذلك العام بالذات في تأسيس الحزب الشيوعي الأسباني. وأصبحت عضواً في اللجنة المسؤولة عن مقاطعة بيسكاي. ثم صارت في العام التالي (1921) عضواً في إحدى لجان المقاطعات في الحزب الشيوعي الأسباني. وبدأت منذ ذلك التاريخ تمارس دوراً مهماً في حياة ونشاط الحزب الشيوعي من المواقع التي كانت تصل إليها في مؤتمرات الحزب من عام 1922 حتى عام 1927. انتخبت في عام 1930 عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تقديراً للدور المهم الذي كانت تقوم به في مختلف المهمات التي أوكلت إليها. وفي عام 1931، العام الذي تحوّلت فيه أسبانيا إلى جمهورية، انتقلت للعمل في مدريد بعد أن تطلقت من زوجها. وأوكل إليها الحزب المسؤولية في إصدار جريدته موندو اوبريرو (عالم العمل). وفي عام 1932 انتخبت عضواً في المكتب السياسي للحزب. وذهبت إلى موسكو في عام 1933 لتمثل حزبا في اللجنة التنفيذية للكومنترن. وفي ذلك العام ترأست جمعية "اتحاد النساء المناهضات للفاشية". في عام 1936 انتخبت نائبة باسم الشيوعيين عن مقاطعة استورياس، وانتخبت في عام 1937 نائبة رئيس البرلمان. وفي عام 1935 أرسلت ولديها روبن وأمايا إلى موسكو للدراسة والعيش في أمان. وشاركت في عام 1936 بتأسيس الجبهة الشعبية من ائتلاف أحزاب اليسار لحماية الجمهورية. في العام ذاته بدأ الصراع بين الجبهة الشعبية وبين القوى المحافظة. وكانت البداية بتحرير السجناء اليساريين من معتقلاتهم بدور مباشر من إيباروري. وألقت خطاباً نارياً احتفالاً بذلك الحدث وهددت النائب الملكي جوزيه كالغو سونيلو بالموت، بسبب مواقفه الإستفزازية إزاء الجبهة وأحزابها. تبع ذلك الحدث اغتيال اليوتنان جوزيه كاستيلو العضو في الحزب الإشتراكي. ورداً على ذلك الإغتيال بادر الحرس الجمهوري إلى اعتقال النائب الملكي سونيلو الأنف الذكر وإلى إعدامه. وتوالت الأحداث الواحد منها تلو الآخر. وانتهت باندلاع الحرب الأهلية. ومع بداية الحرب الأهلية تغيرت الظروف. إذ انتقل الجميع إلى العمل للدفاع عن الجمهورية بكافة الوسائل. وكان لإيباروري دور بارز في تلك المعركة. كانت خطبها الحماسية تلهب أنصار الجمهورية تحت الشعار المعروف "لن يمروا". وقبل أن تتابع نشاطها دفاعاً عن الجمهورية أعادت ولديها من موسكو لتسكت الإنتقادات التي وجهت إليها بسبب إرسالهما إلى موسكو ليعيشا في أمان. التحق الإبن فور عودته إلى البلاد في القتال

دفاعاً عن الجمهورية. وقد أكسبتها نشاطاتها في داخل البلاد وفي زيارتها إلى الخارج لكسب الدعم لنضال الجمهوريين مزيداً من الشهرة. ومعروف أنه قد تشكلت مجموعات من المتطوعين للدفاع عن الجمهورية من الأحزاب الشيوعية والإشتراكية ومن سائر القوى الديمقراطية في العالم برعاية من الأممية الشيوعية ومن الدولية الإشتراكية.

كان من أبرز الذين شاركوا في دعم الجمهوريين وذهبوا إلى أسبانيا في ذلك التاريخ عدد من كبار الشخصيات العالمية من السياسيين والمتقنين: 1- جوزيف بروز تيتو القائد الشيوعي اليوغوسلافي الذي ذهب إلى أسبانيا في عام 1936 وانضم على الفور إلى الفرقة الأممية الأولى، وشارك في المعركة دفاعاً عن مدريد. 2- الأديب الفرنسي أندريه مالرو الذي سافر إلى أسبانيا في عام 1937 والتحق بالقوات الجمهورية في سلاح الطيران. وجرح في المعارك مرتين. وقد أوحى له مشاركته في الحرب الأهلية الأسبانية بروايته المعروفة "أمل الإنسان". والإنسان في الرواية هو الإنسان الذي لا يموت برغم الموت ليبقى في موقعه من أجل منع القوى الفاشية من اكتساح الجمهورية الأسبانية. 3- الأديب الأميركي أرنست همنغواي الذي زار أسبانيا في عام 1937 وذهب إلى جبهة وادي الحجارة التي حقق فيها الجمهوريون انتصاراً باهراً على رتل الجنود الإيطاليين من الفاشست الذين أرسلهم موسوليني لمقاتلة الجمهوريين. وكان يقود تلك المعركة الجنرال ليستر أحد القادة الكبار لجيش الجمهوريين. وكان مع الجنرال ليستر قائد عسكري مجري هو بافل لوكاتش. أَلَّفَ همنغواي في عام 1940 روايته الشهيرة "لمن تفرغ الأجراس" من وحي الحرب الأهلية الأسبانية. 4- الأديب الإنكليزي جورج أورويل الذي سافر إلى أسبانيا في عام 1937. وشارك في القتال مع الجمهوريين وجرح. وقد أوحى له الحرب الأهلية الأسبانية كتابه "تحية إلى كاتالونيا". 5- الإعلامي المجري آرثر كويستلر الذي ذهب إلى أسبانيا في عام 1936 موفداً من قبل صحيفة نيوز كرونكل لتغطية أبناء الحرب الأهلية. وصدر له كتاب في لندن بعنوان "أسبانيا الذبيحة". وقد أقسم الجنرال الفاشي كيبودليانو بأن يقتله إذا ما وقع بين يديه. ولم تمض أشهر حتى أُلقي القبض عليه في مدينة ملقا من قبل الفاشست. وتعرض للتعذيب وحكم عليه بالإعدام. إلا أن السلطات البريطانية تدخلت للإفراج عنه. وأصدر كتاباً آخر بعنوان "حوار مع الحدث" يصف فيه ما لاقاه من صنوف التعذيب. 6- وكان الشاعر التشيلي بابلو نيرودا قد عمل مع صديقه الشاعر الأسباني فيديريكو غارسيا لوركا على استنفار متقفي العالم بالاتفاق مع الشعراء الفرنسيين لويس أراغون وبول إيلوار دفاعاً عن الجمهورية. وعقدت لقاءات وندوات ثقافية في أكثر من مكان. وكان

يفترض بأن يحضر الشاعر لوركا واحدة من تلك اللقاءات التي عقدت في باريس. إلا أن الفاشست تمكنوا من اكتشاف المكان الذي لجأ إليه في غرناطة فاعتقلوه وأعدموه في المكان ذاته.

استمرت الحرب الأهلية ثلاثة أعوام (1936-1939) انتهت بهزيمة الجمهورية وخروج الجمهوريين قادة ومقاتلين إلى بلدان الشتات في أوروبا. وخرجت إيباروري إلى موسكو مع ولديها لتعيش هناك حتى وفاة الجنرال فرنكو في عام 1975. فعادت إلى أسبانيا مع رفاقها وبقيت فيها حتى وفاتها في عام 1989.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية بدأ الحزب الشيوعي الأسباني يفكر في كيفية مشاركته فيها من داخل أسبانيا وباسمها. وفي شهر آب من عام 1941 طرح الحزب شعار "الإتحاد الكامل للشعب الأسباني". وشكل بعد ثمانية أشهر من ذلك التاريخ في مدينة تولوز الفرنسية الفيلق الرابع عشر لقوات الأنصار الأسبان. وظلت فرق الأنصار تمارس نشاطها في أسبانيا حتى عام 1950. إذ قرر الحزب إيقاف نشاطه في المقاومة لصالح سياسة من نوع مختلف. وسرعان ما تبلورت عند الحزب سياسة الدعوة إلى المصالحة. لكن فرنكو لم يستجب واستمر يمارس انتقامه ويحكم البلاد بالقمع على الطريقة الفاشية القديمة حتى آخر أيام حياته التي انتهت في عام 1976. وفي شهر تموز من عام 1950 أنشأ الحزب إذاعة "أسبانيا الحرة" التي أوكلت إدارتها إلى إيباروري. واستمر صوت تلك الإذاعة يدوي حتى شهر تموز من عام 1977. وكانت إيباروري قد انتخبت في عام 1942 أمينة عامة للحزب. وحظيت بدعم كامل من ديمتروف البلغاري ومانويلسكي السوفيياتي في اللجنة التنفيذية للكومنترن قبيل حله. وظلت في ذلك الموقع حتى عام 1960، حيث انتخبت رئيسة للحزب.

في عام 1956 انتخب المكتب السياسي للحزب الشيوعي في اجتماعه الذي عقد في بوخارست سانتياغو كاريو أميناً عاماً جديداً له. وتبنى الحزب من جديد المصالحة والإضراب العام. كان يرمي الحزب من المصالحة تأمين الشروط لعودة الأسبان المهاجرين إلى البلاد، وعودة الحزب للعمل من الداخل، ولو في شروط قاسية. ولم تكن إيباروري موافقة على تلك الخطة.

أسس كاريو في قيادته للحزب سياسة جديدة. حرص فيها على استقلالية نسبية عن الإتحاد السوفيياتي. وشكل مع عدد من الأحزاب الأوروبية ما صار يعرف بالشيوعية الأوروبية. واتخذ مع تلك الأحزاب موقفاً معارضاً للتدخل السوفيياتي في تشيكوسلوفاكيا. وحظي بتأييد كامل من إيباروري التي

أعربت في اجتماع مع قيادة الحزب السوفياتي شجبها لذلك التدخل. وبدأت علاقات جديدة مختلفة بين الحزب الأسباني والحزب السوفياتي كان من نتائجه إنهاك الحزب وبداية الانقسامات فيه.

انتخبت إيباروري عضواً في البرلمان في عام 1977 بعد أن استعيدت الديمقراطية إلى وطنها أسبانيا، في مرحلة ما بعد فرنكو. وكانت في فترة وجودها في موسكو قد حصلت على الجنسية السوفياتية وتلقت جوائز وميداليات من بينها جائزة لينين العالمية للسلام. وكان ابنها قد التحق بالجيش الأحمر وشارك في الحرب وتوفي في معركة ستالينغراد في عام 1942. وكرم اسمه في عام 1956 كبطل من أبطال الجيش الأحمر في الحرب الوطنية الكبرى كضابط سوفياتي.

تلك هي قصة هذه الزعيمة الشيوعية الكبيرة التي ناضلت على امتداد حياتها من أجل انتصار المثل التي آمنت بها، مثل الاشتراكية. لم تياس برغم كل ما أصابها وأصاب شعبها ورفاقها من ويلات في الحرب الأهلية. وظلت تحضر مؤتمرات الحركة الشيوعية وأحزابها. وظلت بقامتها الفارعة وبصلابة مواقفها نموذجاً رائعاً للمناضل الذي لا يعرف اليأس برغم الهزائم والنكبات. وظلت موضع احترام جميع الذين عرفوها في الحركة الشيوعية وعلى تخومها وخارجها.

تعرفت إلى إيباروري في بعض تلك المؤتمرات التي عقدتها الحركة الشيوعية في موسكو. وكنت قد التقيت بالعديد من كوادر الحزب الشيوعي الأسباني في عدد من دول أوروبا الشرقية. وعملت مع بعضهم في منطمتين عالميتين هما اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ومجلس السلم العالمي. وكان من آخر الذين ربطتني به صداقة حميمة الجنرال ليستر، أحد القادة الأساسيين في جيش الجمهورية خلال الحرب الأهلية. كان ذلك في النصف الأول من ستينات القرن الماضي. والجنرال ليستر هو رجل يوحى بالإحترام، ليس فقط بتاريخه النضالي في الحرب الأهلية، بل خصوصاً في مناقبته وفي مستوى الوعي الرفيع عنده بوقائع الأحداث التي واجهها في بلده أسبانيا، وبوقائع الزمن الذي كنا نواجه فيه معاً الإنشقاق الكبير في الحركة الشيوعية العالمية بعد خروج الصين من أسرة الدول الاشتراكية. كان الجنرال ليستر رجلاً رائعاً. وكان مثلاً ممتازاً للقائد العسكري المتسلح بالفكر وبالعمل السياسي الذي كان يستكمل بهما دوره القديم كجنرال كبير في الحرب الأهلية.

إلا أن الحديث عن دولوريس إيباروري وعن الجمهورية الأسبانية وعن الحرب الأهلية التي أسقطت الجمهورية يقضي منا أن نعود قليلاً إلى التاريخ لكي نذكر بالأحداث التي سبقت قيام الجمهورية

وقادت إليها، وسبقت الحرب الأهلية التي هزمت فيها تلك الجمهورية. وأستشهد في رواية تلك الأحداث بمناضل شيوعي عربي أرسله الكومنترن إلى أسبانيا للمشاركة في الدفاع عن الجمهورية وللعمل لإقناع الجنود العرب، لا سيما المغاربة منهم الذين جندهم فرنكو في الحرب ضد الجمهورية، للعدول عن موقفهم والانضمام إلى جيش الجمهوريين. يتحدث الشيوعي الفلسطيني نجاتي صدقي في كتاب مذكراته عن الوقائع التي قادت إلى ولادة الجمهورية، وإلى الإصلاحات التي كانت قد باشرت في تحقيقها قيادة الدولة في ظل الجمهورية، والنتائج التي تولدت عن تلك الإصلاحات. يقول صدقي: ". . . وفي عام 1931 تم إسقاط الحكم الدكتاتوري الذي كان أقامه دي ريفيرا في البلاد في عام 1923. ووافق الملك على إعادة الحقوق الدستورية. غير أن هذه الخطوة لم ترض الشعب الأسباني، فطالب بإلغاء النظام الملكي. وفي 14 نيسان من عام 1931 فر العاهل الأسباني إلى إكلترا، وأعلنت الجمهورية الأسبانية. وقد اختطت الجمهورية منهجاً يقضي بإلغاء طريقة تأجير الأراضي القائمة على أنظمة إقطاعية قديمة، وإعادة النظر في نظام الضرائب، والحد من سلطة الكنيسة، وكف يد الجيش عن السيطرة على الدولة. كما أنها وضعت يدها على أجزاء كبيرة من الأراضي الشاسعة التي يملكها الأثرياء من أصحاب الأراضي، والأسرة المالكة، والكنيسة، ووزعتها على فقراء الفلاحين. ثم استولت على أملاك الكنيسة، وصادرت ثروات الرهبان "الجزويت"، وحلت المنظمات الدينية. وكان لهذه الإصلاحات أن أثارت معارضة قوية من الذين فقدوا أملاكهم وحقوقهم القديمة الموروثة (أحزاب اليمين ورجال الدين). في حين أن العناصر الراديكالية (أحزاب اليسار) كانت تقول بأن إصلاحات الدولة غير كافية، وأنها لم تبلغ الهدف الذي ترمي إليه. وقد تم لهذه الأحزاب الفوز في انتخابات عام 1936 بمعظم مقاعد "الكورتيس". واتخذت إجراءات إشتراكية صارمة ترمي إلى تحديد امتيازات الكنيسة، وتوزيع أراضي كبار الملاكين على الفلاحين، وتوزيع الثروة الأهلية بين السكان توزيعاً عادلاً. وإذ شعرت الحكومة الجمهورية بأن الضباط المحافظين في الجيش قد أخذوا يتمللمون، أسرعت إلى تسريح بعضهم. ونقلت البعض الآخر إلى المستعمرات الأسبانية فيما وراء البحار، وفي عددهم الجنرال فرنسيسكو فرنكو الذي نقلته إلى جزر الكناري. وفي هذه الأثناء شرع العسكريون، في داخل أسبانيا وفي مستعمراتها، في إعداد العدة بزعامة الجنرال فرنكو لإسقاط النظام الجمهوري. وفي 18 تموز من عام 1936 نشبت الحرب الأهلية بين "العصاة" و"الجمهوريين". ويقدر أن حوالي 90 بالمئة من الضباط وثلثي الجيش الأسباني كانوا يتعاطفون مع "العصاة"، يساندون كبار أصحاب الأراضي ورجال الكنيسة، وقمة أصحاب الأعمال. أما "الجمهوريون" فقد نالوا تأييد البقية الباقية من الجيش، إضافة إلى "الشرطة الضاربة" ومعظم السكان

المدنيين. ازدادت الحرب الأهلية شدة وضراوة، وانفصل عدد كبير من زعماء الطبقة المتوسطة عن الأحزاب الجمهورية البورجوازية، وانضموا إلى الأحزاب اليسارية (الإشتراكية، الشيوعية، الفوضوية، والنقابية). أما العصاة فقد أضعفهم الخلاف في تحديد الأهداف. فأعلن الجنرال فرنكو قيام "الدولة الفاشستية" في أسبانيا. وجنح إلى المراوغة بقصد كسب عطف السكان. فطالب بتوزيع الأراضي الكبيرة على المزارعين، واتخاذ إجراءات مضادة لامتيازات رجال الدين. غير أن هذه المطالب أثارت بدورها استياء أصحاب الأراضي ورجال الدين، الذين أخذوا يطالبون بعودة النظام الملكي. لقد أحدثت الحرب الأهلية الأسبانية في داخلها حرباً أهلية بين شعوب غير أسبانية. فالفاشست الطليان والنازيون الألمان وغيرهم من الأقوام يحاربون إلى جانب "الفلانج" الإسبان. وكان اليساريون الروس والديمقراطيون الغربيون وغيرهم من الأقوام يحاربون إلى جانب الجمهوريين الإسبان. بينما بعض الدول الديمقراطية، مثل إنكلترا وفرنسا، التزمت سياسة عدم التدخل في الحرب الأسبانية خشية أن تتحوّل إلى حرب أوروبية. ويقدر عدد الأجانب الذين تورطوا في الحرب الأسبانية بخمسين ألف نسمة، آتين من اثني عشر قطراً، ثلاثون ألف نسمة منهم يقاتلون إلى جانب العصاة ومعظمهم من الألمان والطلليان والبرتغال، وعشرون ألف نسمة منهم يقاتلون إلى جانب الموالين، ومعظمهم من الروس والإنكليز والأميركان. لقد اتسمت الحرب الأهلية في أسبانيا بالشراسة والوحشية، ويقدر عدد ضحاياها بمليون نسمة. وكانت الكفة الراجحة فيها إلى جانب العصاة، بسبب وجود قوات نظامية إلى جانبهم تزودهم بأعتدة حربية ضخمة من ألمانيا وإيطاليا، مكنتهم من الإشراف على ثلثي أسبانيا الغربية. وفي شهر آذار من عام 1938 تقدم العصاة في داخل البلاد تقدماً حاسماً. وفي أواخر تلك السنة انتقلت العاصمة من مدريد إلى فالنسيا. وفي كانون الثاني من عام 1939 سقطت مدريد في يد القوات المغيرة. وبسقوطها كانت نهاية الحرب الأهلية في أسبانيا. وكان أول إجراء اتخذته الجنرال فرنكو، بعد محاولة دخوله إلى مدريد، إصداره مراسيم أعاد بموجبها الأراضي إلى أصحابها السابقين. كما أعاد للكنيسة أملاكها ونفوذها وسلطانها".